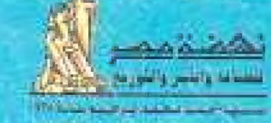
في التنوير الإسلامي
«١٥»

النموذج الثقافي

تأليف
د. محمد عمارة



في التنوير الإسلامي ١٥

النموذج الثقافي

تأليف

د. محمد عمارة





اسم السلسلة: فى التنوير الإسلامى.
اسم الكتاب: النموذج الثقافى
تأليف: دكتور / محمد عمارة.
تاريخ النشر: مارس ١٩٩٨.
رقم الإيداع: ١٩٩٧/٣٧٦٠ .
الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0585 -3
الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١.
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١.
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢.
فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ / ٠٢. ص.ب.: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢. فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ / ٠٢.
ص.ب: ٢٠ إمبابة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

على المستوى الإنسانى ، وفى مختلف الميادين ، ينهض «النموذج» بدور محورى فى تحديد «الأسوة .. والقدوة» التى تنهض بدور «البوصلة» المحددة والمرشحة لتوجهات الإنسان فى مختلف ميادين الحياة ..

ففى الأسرة «نموذج الأب» .. وفى الأمة «نموذج البطل» .. وفى التاريخ «نماذج الانتصارات» .. وفى العلاقات الدولية والإقليمية «نموذج الوطن» .. وفى العقائد والأيديولوجيات «نموذج الدين» .. إلى آخر «النماذج» التى تأسر الإنسان على توجُّه بعينه وطريق بذاته عند مفترق الطرق ، وتعدد الخيارات .. وفىّ اللحظة التى يتم فيها اختيار «النموذج» ، يحدث الإفصاح والإعلان عن انتماء «الذات» ، ومن ثم تميزها عن «الآخر» ، الذى عدلت عن اختياره «نموذجا» فى هذا الميدان من ميادين الاختيار ..

والميدان الثقافى ليس فقط مجرد واحد من هذه الميادين التى يتم فيها اختيار الإنسان «نموذجا» دون الآخر .. بل إن «النموذج الثقافى» يكاد أن يكون، بعد اختياره، والانتماء إليه، والولاء له، المعيار الذى يحدد ويرجح «النماذج» التى يختارها الإنسان فى العديد من المجالات والكثير من الميادين .. فالثقافة التى صنعت هوية الإنسان، هى الموجّه

لاختياراته لنماذج الأسوة ومناهج القدوة والمثل والمعالم التى تجعله يوالى هذا ويعادى ذاك، وينشط لهذا المقصد ويعدل عن سواه، ويضحى فى هذا السبيل ولا يلتفت إلى ماعداه .. و «النموذج الثقافى» هو المحدد «لنموذج المستقبل» الذى يسعى الإنسان لصنعه، وتحقيقه فى الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه ..

وإذا كان الله ، سبحانه وتعالى ، قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة ، فلقد اقتضت حكمته ، وحتى يتم استباق الناس على طرق الاستعمار للأرض ، وتنافسهم فى تحصيل المنافع ، وتدافعهم لحيازة الخيرات المادية والمعنوية .. شاء ، سبحانه ، أن تتوزع البشرية إلى تعددية فى الشعوب والقبائل والأمم والألسن والألوان والمناهج والشرائع ، ومن ثم فى القوميات والثقافات ..

وإذا كانت «الذات» إنما تُعَرَّف بالسمات الثوابت التى تميزها عن «الآخر» ، وليس بالمشترك الذى يجمعها بهذا «الآخر» ..

وبما أن واقع أمتنا العربية الإسلامية، الحديث والمعاصر، هو واقع الاحتكاك والتدافع الثقافى والحضارى مع النموذج الغربى تحديدا، ودون أى «آخر» سواه .. فإن الحديث عن «الذات» و «الآخر» ثقافيا، لابد وأن يقود إلى تحديد المعالم المميزة للنموذج الثقافى الاسلامى عن النموذج الغربى - دون أن يعنى ذلك إنكار ميادين المشترك الإنسانى العام فى العديد من العلوم والمعارف التى لا تدخل حقائقها وقوانينها وثمرات معارفها وتجاربها فى «المميز للذات الثقافية»، وإنما تدخل فى «الجامع» الذى تتفاعل فيه وتتشارك «الذوات الثقافية» للإنسانية جمعاء..

فالإسلام هو المكون لذاتيتنا الثقافية ، والمحدد لمعالم نموذجنا الثقافى ، وتميزنا عن «الآخر» الغربى قائم فقط حيث يكون التميز والافتراق .. الأمر الذى يجعل علاقة نموذجنا الثقافى - الذات الثقافية - بالآخر هى علاقة «التميّز .. والتفاعل» ، التى هى وسط عدل متوازن بين غلوّين : غلو الإفراط ، الذى يرى هذه

العلاقة علاقة «قطيعة .. وتضاد» .. وغلو التفريط ، الذى يراها علاقة «مماثلة .. ومحاكاة» ! ..

فكما تميز «البصمة» الإنسان عن بنى جنسه ، مع اشتراكه معهم فى جنس الإنسان ؛ كذلك تتميز الذات الثقافية للأمة عن الذوات الثقافية الأخرى ، بتميز النماذج التى يجمع كل منها معالم المغايرة والسمات الفارقة لنموذج ثقافى عن سواه ، وذلك دون إنكار أو إغفال لميادين الاشتراك الإنسانى فى كثير من حقائق وقوانين الكثير من التجارب والخبرات والعلوم والفنون ..

* * *

وهذه الحقيقة من حقائق علاقة «الذات الثقافية» بـ «الآخر الثقافى» - علاقة «التميّز .. والتفاعل» - لا «القطيعة .. والتضاد» .. ولا «المماثلة .. والمحاكاة» - قد غدت ، عبر التاريخ ، قانونا حكم التقاء واحتكاك وتدافع الثقافات فى سياق تدافع الحضارات ..

فالإغريق انفتحوا على المصريين القدماء ، لكن تأثرهم وقف عند ثمرات «العقل» دون أن يتجاوزها إلى عالم «الروح» و«الوجدان» ..

والمسلمون انفتحوا على الحضارة الهندية ، لكنهم أخذوا عن الهنود الفلك والحساب ، دون الفلسفات والثقافات .. وكذلك صنعوا فى انفتاحهم على الفرس ، عندما أخذوا عنهم التراتيب الإدارية ، ورفضوا مذاهبهم الفلسفية وعقائدهم الدينية .. وعن الرومان البيزنطيين أخذوا تدوين الدواوين ، ولم يأخذوا القانون الرومانى .. وكذلك الحال فى الانفتاح على تراث الإغريق ، فلقد أخذ المسلمون العلوم التجريبية التطبيقية المحايدة ، وأهملوا النظر فى

إلهيات اليونان ، بل وأهملوا النظر فى الآداب الإغريقية لما حملت من أساطير وثنيتهم ولما جسدت من روح الوثنية فى ذلك التراث . .

وذات القانون نراه فاعلا إبان انفتاح النهضة الأوربية على تراثنا الإسلامى ، فلقد أخذوا العلوم التجريبية ، التى طورها المسلمون ، وأخذوا إبداع أسلافنا فى المنهج التجريبى والملاحظة والاستقراء - وهو الذى فتح به المسلمون باب التجاوز للقياس الأرسطى - لكنهم - الأوربيون - لم يأخذوا نموذجنا الثقافى الإسلامى ، بل لقد أحيوا النموذج الإغريقى مع استلهامهم من تراثنا العلوم الطبيعية والمنهج التجريبى ، فنهضوا كامتداد متطور للإغريق والرومان ، ولم يقفوا من نموذجنا الثقافى الإسلامى موقف المحاكاة . . بل لقد كان تعامل النهضة الأوربية مع فيلسوفنا أبى الوليد ابن رشد - الحفيد- (٥٢٠ - ٥٩٥هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) نموذجا لإعمال هذا القانون الذى حكم العلاقة الصحية والطبيعية بين النماذج الثقافية المتميزة للأمم المختلفة . . فأخذوا «ابن رشد : الشارح لأرسطو» - لأن هذه بضاعتهم ردت إليهم - ورفضوا - بل وأصدروا مراسيم التحريم - على «ابن رشد : الموفق بين الحكمة الإنسانية وبين الشريعة الإسلامية» . . و «المتكلم ، الذى أقام العقيدة الدينية على العقلانية المؤمنة» و «الفقيه الذى كان يقضى بين الناس بشريعة الإسلام وفقهها» . . لأن هذا النموذج الثقافى الإسلامى - أو «الرشدية الإسلامية» - كان مغايراً للنموذج الثقافى «للرشدية اللاتينية» ، تلك التى استبدلت العلمانية باللاهوت ، وألّهت العقل ، عندما أصبحت عبارة : «لا سلطان على العقل إلا للعقل» هى شعار فلسفة وفلاسفة التنوير ! . .

بل إن بواكير نهضتنا الحديثة - وخاصة تجربة مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى - تحت حكم محمد على باشا الكبير (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) - قد جسدت إعمال هذا القانون فى علاقة الذات الثقافية ونموذجها بالآخر الثقافى ونموذجه ..

فرفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) هو الذى دعا إلى التتلمذ على أوربا فى «العلوم الحِكْمِيَّة العملية .. والمعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقدم الوطنية ، لأنها - وإن ظهر الآن أنها أجنبية - هى علوم إسلامية ، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة»! .. فدعا الطهطاوى إلى التفاعل مع معارف وحقائق هذه العلوم ، مع إحياء النموذج الثقافى الإسلامى ، «بنشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة»

بل لقد أكد الطهطاوى تميز النموذج الثقافى الإسلامى عن النموذج الأوربى ، عندما قال إن لهم فى «الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية .. وهم من الفِرَق المُحَسِّنَة والمُقَبِّحة بالعقل والنواميس الطبيعية وحدهما .. أما نحن المسلمين فليس لنا أن نعتمد على ما يُحَسِّنُه العقل أو يُقَبِّحُه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه .. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع»[1]

(١) انظر فى ذلك (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ١ ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ١١٤ ، ١١٥ . وجـ٢ ص ١٥٩ ، ٧٩ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

فعندما تكون العلاقة صحية، وقائمة على الاختيار الحر، وعلى التكافؤ، بين الحضارات، ينهض النموذج الثقافى بدور المعيار الذى يحدد نطاق «التفاعل.. والاستلهام» وحدود «التمايز.. والخصوصية»، فتكون العلاقة الصحية والطبيعية بين «الذات» وبين «الآخر» فى الميدان الثقافى.

ولهذا الوضوح، فى تميز النموذج الثقافى الإسلامى عن النموذج الأوربى، عند الطهطاوى، وفى تجربة مصر على عهد محمد على باشا الكبير، رأينا الطهطاوى عقب عودته من باريس سنة ١٨٣١م يقدم إلى المطبعة مشروعين لقائمتين من الكتب: مشروع لإحياء أمهات كتب التراث الإسلامى .. ومشروع لترجمة معارف وعلوم التمدن المدنى الأوربى الحديث ..

ووجدنا، كذلك، جميع المبعوثين الذين ابتعثتهم الدولة إلى أوربا - فى عهود محمد على وعباس وسعيد - يذهبون للتخصص فى العلوم الطبيعية التى تغير الواقع، ولم يذهب منهم مبعوث واحد ليدرس الإلهيات أو الآداب والفنون أو الإنسانيات التى تصوغ وجدان الإنسان وتشكل عمران النفس الإنسانية، لأن هذه المهمة هى اختصاص النموذج الثقافى الإسلامى دون سواه! ..[1]

فلما انتكست التجربة، وهيمن الاستعمار، انعكست الآية .. فحرمنا من العلم الأوربى الذى نحتاج، وأمطرنا بألوان النموذج الثقافى «الآخر» بدلا من نموذج «الذات» ! ..

---

(١) أنظر: عمر طوسون (البعثات العلمية فى عهد محمد على وعباس وسعيد) ص٢٣، ٢٤، ٢١٩، ١١، ١٦٢، ١٦٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤م.

- «النموذج» : هو «التصور» و «المثال» ، الذى يتحول إلى «معيار» فارق ومميز - فى النسق الفكرى - لمنظومة فكرية أو عقدية أو حضارية أو ثقافية عن غيرها من المنظومات المتميزة فى «النموذج» و «التصور» و «المثال» . .
- و «الثقافى» هو جماع ما يعمر النفس الإنسانية ويصوغها ويهذبها ، من سائر ألوان الإبداع والعطاء . . إبداع الإنسان وعطاء الخيط . . وهو - «الثقافى» - مع «المدنى» - الذى هو جماع ما يتمدن ويعمر به الواقع المادى ، ويرتقى ويتهذب - يمثلان جماع «الحضارة . . والعمران» . . فالثقافة عمران النفس الإنسانية ، والتمدن عمران الواقع المادى . . ولذلك كان «الاشتراك الإنسانى» فى «التمدن» - عمران الواقع المادى - أكثر مما هو فى «الثقافة» ، التى هى عمران النفس الإنسانية ، إذ فيها تتجلى الخصوصيات بين الأمم والحضارات ، لاستعصاء النفس ، ومن ثم مقومات تهذيبها وعمرانها على النمطية والقولبة والتكرار الوارد فى عمران الواقع المادى . .
- ولأن الإسلام - كمنظومة عقدية، تكون من حولها نسق فكرى - قد مثل «الرحم» الذى ولدت منه الأمة الواحدة .. والدولة الواحدة .. والدار الواحدة .. والصبغة التى صبغت حضارة الأمة وميزتها، عبر الزمان والمكان .. وذلك فضلا عن الوحدة فى العقيدة والشريعة، حتى لكأنما قد خرجت أمته من بين دفتى قرآنه الكريم .. لأن هذه هى المكانة المحورية للإسلام فى حياة الأمة، فلقد صاغ إنسانها، وحدد له معالم الطريق لبناء العمران الدنيوى، ولضمان

النجاة الأخروية.. صاغ الإسلام لإنسانه وأمته المعايير التي لونت الثقافة التي نهضت بمهام العمران والتهذيب للإنسان المسلم، إن في لحظات التزامه بالنموذج والمعيار والمثال والتصور، أو حتى في لحظات انحرافه عنه، لأن «الضمير» الذي صاغه النموذج الإسلامي يظل واعيا بأن الانحراف عن هذا النموذج هو الاستثناء الشاذ، والحرام الذي ينتقص من تهذيب النفس وعمرانها، أي من ثقافتها، التي لابد وأن تلتزم التصور وتتغيا المثال..

تلك هي مكانة الإسلام في صياغة النموذج الثقافي للأمة . .

ولعل الإسلام قد بلغ على هذا الدرب - صياغة النموذج الثقافي . . وصبغه بصبغته - أكثر من المنظومات العقدية والفكرية الأخرى ؛ دينية كانت أو وضعية ، لأن الديني من تلك المنظومات قد وقف في الغالب عند مهام «خلاص الروح . . ومملكة السماء» ، بينما توجه الوضعي من هذه المنظومات الفكرية إلى «شئون الدنيا» دون سواها . . أما الإسلام ، الذي مثّل منهاجا شاملا وجامعا للروح والجسد ، للفكر والمادة ، للدين والدولة ، لعالم الغيب وعالم الشهادة ، للدنيا والآخرة ، للذات والآخر ، للفرد والطبقة والأمة ، للتكاليف الفردية والكفائية (الاجتماعية) ؛ حتى لقد جعل الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا وطيبات الحياة عبادة لله ، وصنف إماطة الأذى عن الطريق في شُعَب الإيمان ! . . إن الإسلام ، الذي مثل بمنهاجه الشامل هذا : الروح السارية في الحياة الإنسانية ، وفي محيطها الطبيعي ، وفيما وراء الحياة والطبيعة ، قد بلغ في صبغ

الثقافة الإسلامية بصبغته المتميزة الدرجات التى لم تبلغها المنظومات العقدية الأخرى .. لقد صاغ النموذج والمثال والتصور والمعيار ، الذى كان التزامه من قبل الإنسان المسلم السبيل لأسلمة الثقافة ، التى صاغت النفس المسلمة ..

وحتى الأعراف - التى يصنعها الإسلام - رأيناه يضبطها ، ثم يجعلها مصدرا من مصادر التشريع .. وحتى «الحكمة» ، التى هى الصواب البشرى ، الذى يصل إليه العقل الإنسانى ، رأينا الإسلام يجعلها مناطا للتكليف الشرعى ، ويحدثنا عن أنها - كالكتاب - كلاهما تنزيل إلهى ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[1] ..

لقد كانت الصناعة الثقيلة للإسلام هى تغيير النفس الإنسانية وصياغتها صياغة إسلامية ، وذلك لتصوغ واقعها صياغة إسلامية كذلك ، أى ليقوم العمران الإسلامى ، فى النفس والواقع ، فتتحقق المقاصد الإلهية من وراء خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض لاستعمارها ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. ﴾[2] .. ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ... ﴾[3]

---

(١) البقرة : ١٥١ . (٢) البقرة : ٣٠ . (٣) هود : ٦١ .

تلك هى مكانة الإسلام فى صياغة النموذج الثقافى للأمة الإسلامية . .

* * *

وإذا كانت هذه هى خصوصية الإسلام ، التى عَظُمت من دوره فى صياغة النموذج الثقافى لأمته وحضارته . . فإن فى بناء هذا النموذج العديد من «اللبنات» . . والتى تقف هذه الصفحات - مراعاة للحيز والمقام - عند تقديم نماذج منها ، تعين على تصور دور الإسلام - مقارنا بالتصور الغربى خاصة - فى صياغة النموذج الثقافى المتميز للأمة العربية والإسلامية . . فهى «لبنات» قد مثلت «خصوصيات» ميزت هذا النموذج الإسلامى فى الثقافة عن غيره من النماذج الثقافية الأخرى . .

١ - التوحيد :

لقد بلغ الإسلام ، على درب عقيدة التوحيد ، الذروة فى تنزيه الذات الإلهية عن أى تعددية أو تركيب أو مماثلة أو شبه لأى من المخلوقات والمحدثات ، وصاغ للخالق تصورا تجريديا بلغ فى التجريد أقصى ما يطيقه عقل الإنسان ﴿ قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤) ﴾[1] .. وهو سبحانه وتعالى ، ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١١) ﴾[2] .. حتى لقد اجتهد علماء أصول الاعتقاد الإسلامى ؛ كى يعبروا - باللغة البشرية - عن هذا التصور التنزيهى التجريدى الذى جاء به الإسلام للذات الإلهية ، فلم يجدوا إلا طريق الوصف بالسلب .. فقالوا عبارتهم الشهيرة : «كل ما خطر على بالك، فالله ليس كذلك»!..

فهو ، سبحانه ، مفارق ، ليس فقط للمخلوقات ، وإنما ، أيضا ، لكل التصورات الإنسانية عن هذه المخلوقات ..

قدم الإسلام هذا النموذج للتوحيد ، فى مقابل اليهودية التى تحولت ، بالتحريف ، إلى وثنية ، صورت الإله مصارعا؟! .. وجعلته إلها لبنى إسرائيل وحدهم ، وللشعوب الأخرى آلهتها الأخرى؟! ..

وفى مقابل نصرانية اغتالت الغنوصية توحيدها ، فسقطت فى الحلول والتجسد وتعددية التثليث ؟! ..

---

(١) الإخلاص : ١ - ٤ .

(٢) الشورى : ١١ .

ولم يقف الإسلام بهذا التصور التنزيهي والتجريدي للتوحيد عند نطاق الاعتقاد الديني في ذات المعبود، وإنما أشاعه روحا سارية في ثقافة الإنسان المسلم، وذلك عندما جعل من عقيدة التوحيد ثورة لتحرير الإنسان الموحد من العبودية لسائر الطواغيت.. ففي العبودية للمعبود الواحد قمة التحرر من أسر واستعباد كل ما عدا الله.. ومن هنا تحول التوحيد، ويتحول إلى حياة يحياها الإنسان دائما وأبدا، وليس فقط إلى تصور عند الشعائر والعبادات ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾[1]

وهذا التصور الإسلامي الذي يُخلص العبودية لله الواحد في كل الميادين - الدينية .. والدنيوية .. والأخروية - (صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له)- هو الذي ميز النموذج الثقافي الإسلامي بتصور متميز لنطاق عمل الذات الإلهية، انفردت به الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات ..

- ففي الأرسطية اليونانية، كان التصور للذات الإلهية باعتباره مجرد خالق للعالم .. خلقه وانتهت علاقته به .. وتدبيره موكول إلى الأسباب الطبيعية والمادية المودعة في ظواهره وقواه ..
- وفي الوثنية الجاهلية كان التصور لنطاق عمل الذات الإلهية قريبا من هذا التصور الأرسطي .. فالوثنيون في الجاهلية لم يكونوا ينكرون الله خالقا للمخلوقات ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات

(١) الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.

والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون (٦١) ﴾[1] . . لكنهم كانوا يشركون معه الطواغيت والأوثان فى تدبير العمران الدنيوى ، فيلجأون إلى هذه الأوثان إذا أرادوا الحرب أو السلم ، السفر أو الحِلّ ، الإقدام أو الإحجام . الخ . . الخ . . فجعلوا الله خالقا . . ووقفوا بنطاق عمله عند الخَلْق . . وجعلوا تدبير العمران للشركاء والطواغيت ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾[2]

● وقريبا من هذا التصور - الذى يعزل الذات الإلهية عن تدبير العمران الإنسانى ، ويحرر سياسة هذا العمران من شريعة السماء - . . قريبا من هذا التصور جاء التصور اللاهوتى النصرانى ، عندما قال : «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ، فحرر «قيصر» - أى الدولة والمجتمع والعمران - من قانون الله وشريعة السماء ، جاعلا تدبير العمران إلى المرجعية الإنسانية وحدها . .

● ولذلك كان التصور العلمانى الغربى - الوضعى . . والمادى - طبيعيا فى ذلك الإطار ، فهو عندما رأى العالم مكتفيا بذاته ، والطبيعة تدبرها الأسباب المادية المركبة فى ظواهرها وقواها ، والدولة والاجتماع البشرى يدبرهما ويسوسهما الإنسان بالعقل والتجربة . . إنما كان إحياء حديثا للتصور الأرسطى لنطاق عمل الذات الإلهية - الخلق دون الرعاية والتدبير - . . كما كان تصحيحا رد الكنيسة - التى تجاوزت رسالة النصرانية ،

---

(١) العنكبوت : ٦١ . (٢) الأنعام : ١٣٦ .

عندما جمعت السلطة الزمنية إلى السلطة الروحية .. ردها إلى نطاق التصور اللاهوتى لرسالة نصرانيتها ولنطاق عمل إلهها - «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» - ..

- أما التصور الاسلامى فقد جاء متميزا عن جميع تلك التصورات .. فالتوحيد فيه يفرد الذات الالهية، لا كمجر خالق فقط، وإنما هو الخالق والراعى والمدبر لجميع المخلوقات .. فالأمر والتدبير له، سبحانه، وليس الخلق فحسب .. ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[1] .. ﴿قال فمن ربكما يا موسى (٤٩) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٥٠)﴾[2] ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١٦٣)﴾[3]

وبهذا التصور الاسلامى للتوحيد.. ولنطاق عمل الإله الواحد، تميز النموذج الإسلامى، وسرى هذا التميز فى الثقافة الاسلامية عندما صاغ هذا التصور المتميز النفس التى تصورت الذات الالهية على هذا النحو من التنزيه والتجريد، والتى رأته المدبر لكل المخلوقات، والحاكم فى مختلف ميادين العمران.

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) طه : ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

٢ - والاستخلاف .. والخلافة:

وإذا كان هذا التصور التوحيدى ، قد جعل الحكم والتدبير - مع الخلق - لله ، سبحانه وتعالى .. فإن نظرية الاستخلاف الإسلامية قد حددت مكانة الإنسان ونطاق عمله وآفاق حريته وقدرته واستطاعته فى العمران البشرى ، الذى اختار حمل أمانته عندما استخلفه الله فيه ..

فالتصور الإسلامى عن أن الحكم لله ، واضح أشد الوضوح « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم »[1] ..

لكن الله استخلف الإنسان لإقامة العمران فى الأرض « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »[2] .. « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[3] .. وحتى ينهض الإنسان بتكاليف إقامة العمران ، وأمانات الاستخلاف ميزه خالقه بالاختيار والحرية والقدرة والاستطاعة « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (٧٢) »[4] .. فكانت مكانته هى مكانة الخليفة ، المتمتع بالحريات ، والمالك للقدرات ، لكنها حريات

---

(١) يوسف : ٤٠ .
(٢) البقرة : ٣٠ .
(٣) هود : ٦١ .
(٤) الأحزاب : ٧٢ .

وقـدرات الخليـفـة ، المكلف بأن يضـبطهـا ببنود عـقـد وعـهـد الاسـتخلاف . . فـهـو ليس المُجْبَر المُهَمَّش الذى لا شأن له . . وليس سيد الكون الذى لا يُسأل عـمـا يفعل والفعال لما يريد ، والذى لا سقف لحرياته وقـدراته . . وإنما هو خليفة لسيد هذا الوجود ، استخلفه وأراد له استعمار الأرض ، عمرانا يهتدى فيه ويلتزم عند تدبيره ببنود عقد وعهد الاستخلاف ، التى تمثلت فى شريعة الله . .

ولقد قدم الإسلام هذا التصور لمكانة الإنسان فى الوجود - تصور الخلافة والاستخلاف ، فتميز به النموذج الإسلامى عن التصورات المادية التى رأت الإنسان سيدا لهذا الوجود ، مكتفيا بذاته ، قاهرا للطبيعة ، لا سقف لحريته وإرادته إلا إطار النفع العام ، ولا قيود على أشواقه من وراء هذه الطبيعة - من الحلال والحرام الدينى - . .

كما تميز هذا النموذج الإسلامى ، فى مكانة الإنسان بالوجود ، عن التصورات الفلسفية الغنوصية والباطنية والإشراقية التى رأته حقيرا مُجْبَرًا مُهَمَّشًا ، لا سبيل إلى خلاصه إلا بالفناء فى المطلق . .

ولقد عبر الإمام ابن حزم الأندلسى (٣٨٤ - ٤٥٦هـ ٩٩٤ - ١٠٤٦م) بعبارة بالغة عن هذا الاستخلاف الذى جعل الله فيه الإنسان حاكما ، كمستخلف عن الله ، الذى له الحكم والأمر والتدبير . . فقال : «إن من حكم الله أن يجعل الحكم لغير الله»!؟ . . فحكم الإنسان وخلافته هما حكم من الله الذى حكم وقضى باستخلاف الإنسان فى إقامة العمران . .

وكما تجاوز التصور التوحيدى الإسلامى نطاق الاعتقاد فى علاقة الإنسان بخالقه ، ليشيع فى ثقافة الإنسان المسلم . . كذلك كان الحال مع نظرية الاستخلاف . .

● فحقوق الإنسان - التي ارتفع الإسلام بدرجاتها إلى مراتب الفرائض والواجبات والضرورات - هي حقوق الإنسان الخليفة .. ولذلك فهي محكومة بحقوق الله .. وليست، كالحال في التصورات الأخرى، محكومة فقط بالمصلحة الدنيوية والمنفعة المادية .. بل إن المصلحة ذاتها، في التصور الإسلامي، لابد وأن تكون «شرعية - معتبرة» ! .. فبنود عقد وعهد الاستخلاف، المتمثلة في حدود الله - من الحلال والحرام الديني - هي الضابط والسقف لهذه الحقوق .. لأن صاحبها خليفة ونائب ووكيل .. وليس سيد هذا الوجود ..

● وحظ الإنسان من الثروات والأموال، وعلاقته بها، وموقعه منها: هو موقع الخليفة المستخلف فيها .. وحريته في الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف .. ذلك أن المالك الحقيقي - مالك الرقبة - في هذه الأموال، هو خالقها سبحانه وتعالى؛ وللإنسان فيها مكانة الخليفة والنائب والوكيل - .. له فيها ملكية المنفعة - المجازية - وحرية الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة بحدود الله - في الحيازة .. وفي الإنفاق .. وفي التكافل الذي يحقق وحدة الجسد الإسلامي .. الخ - ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧) ﴾[1]

---

(١) الحديد: ٧.

● وإذا كانت الأمة والجماعة هي المستخلفة لله ، سبحانه وتعالى ، فإن «الدولة» ، في النموذج الإسلامي ، هي دولة الخلافة ، أي المستخلفة عن الأمة للنهوض بالمهام التي استخلفتها الأمة فيها . . فَتَمَيُّزُ التصورُ الإسلامي «للدولة» أيضا ، تبعا لتميز هذا النموذج بنظرية الاستخلاف . . ولذلك ، لم تكن صدفة أن يطلق المسلمون على نظام الدولة ، منذ العصر الراشد ، دولة «الخلافة» . . بل إن الحديث النبوي قد شهد بهذا التميز لهذا النظام عندما قال رسول الله ، ﷺ : «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، إنه سيكون خلفاء»[1] . . وبدولة الخلافة تكون حراسة الدين ، وسياسة الدنيا بهذا الدين . .

● وكما استخلف الله الإنسان لعمارة الدنيا ، فإنه قد كلّفه بإقامة الدين ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[2] . . فكان مستخلفا في إقامة الدين وفي بناء العمران ، على النحو الذي يكون فيه الدين سائسا للعمران ، ويصير فيه العمران أساسا لإقامة الدين . . وعن هذه الحقيقة من حقائق التصور الإسلامي لعلاقة العمران بالدين ، يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ -

---

(١) رواه البخاري وابن ماجة والإمام أحمد .

(٢) الشورى : ١٣ .

١١١١م) : «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا . فنظام الدين ، بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات من : الكسوة ، والمسكن ، والأقوات ، والأمن . فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية . وإلا ، فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يتفرغ للعلم والعمل ، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة ؟! . فإذن ، بان أن نظام الدنيا . أعنى مقادير الحاجة ، شرط لنظام الدين[١]»

وهكذا يتميز التصور الإسلامى فى علاقة الدين بالعمران الدنيوى على النحو الذى يقيم علاقات «الجدل» و«الارتفاق» بينهما، كما لم يوجد فى تصور اخر من التصورات التى سقطت فى الثنائيات المتقابلة والمتناقضة : - كما غدا هذا التصور الإسلامى المتميز سمة شائعة فى النموذج الثقافى الإسلامى، ميز النظرة للدين وللعمران كليهما عن نظيرتها فى الأنساق الثقافية الأخرى.

(١) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٥ . طبعة القاهرة . مكتبة صبيح - بدون تاريخ .

٣- والتعددية:

إن جماع هذا الوجود فى النظرة الإسلامية ، والتصور الثقافى الإسلامى - : هو الحق .. والخلق : الخالق ، سبحانه وتعالى : والكون وعوالم المخلوقات : الموجد والموجودات ، المُحْدِث والمُحْدَثات .. هذا هو جماع الوجود فى نموذج التصور الثقافى الإسلامى ..

وإذا كان هذا التصور قد بلغ قمة التنزيه والتجريد فى وحدانية الحق .. فإنه قد آمن بأن التعددية هى السنة والقانون فى سائر عوالم الخلق، التى فطرها خالقها على الثنائية والازدواج والاشتراك والارتفاق، فطرة وسنة لا تبديل لها ولا تحويل .. فالإيمان بالتعددية فى ظواهر وعناصر الكون المادى، وفى مكونات الاجتماع الإنسانى قسمة أصيلة وسمة بارزة فى النموذج الثقافى الإسلامى، والوعى بهذه الحقيقة إنما يمثل حجر زاوية - أو هكذا يجب أن يكون - فى ثقافة إنساننا العربى والإسلامى.

فتعددية الازدواج سنة إلهية حكمت خلق الله لجميع المخلوقات ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦) ﴾[1]

وتعددية الذكر والأنثى سنة إلهية قد حكمت خلق الله للأنفس والبشر ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾[2]

وفى بقية هذه الآية القرآنية التى تحدثت عن سنة التعددية فى خلق الإنسان من ذكر وأنثى ، إشارة إلى سنة أخرى هى تعددية الإنسانية والبشرية إلى شعوب وقبائل ، أى تعددية فى الأمم

(١) يس : ٣٦ .

(٢) الحجرات : ١٣ .

والجماعات . ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١٣) ﴾[1]

وكما اقتضت السنة الإلهية تعدد البشر إلى شعوب وقبائل وأمم وجماعات ، كذلك اقتضت تعدديتها فى القوميات - التى تحددها تعددية الألسن واللغات - وفى الأجناس - التى تشير إليها الألوان- . . سنة حاكمة وقانونا عاملا وآية من آيات الله فى الخلق ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢) ﴾[2]

وإذا كانت سفينة نوح ، عليه السلام ، قد مثلت «الحياة» الناجية من الطوفان ، فلقد حكمت التعددية والازدواج عناصر ومكونات هذه الحياة ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن . . ﴾[3] . . ﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك . . ﴾[4]

---

(١) الحجرات : ١٣ .
(٢) الروم : ٢٢ .
(٣) هود : ٤٠ .
(٤) المؤمنون : ٢٧ .

وكما قام الخلق على التعددية ، كذلك حكمت سنتها وساد قانونها في «عالم الأفكار» . . فالاختلاف في الشرائع والمناهج ، والتعددية في المذاهب والتيارات الفكرية ، هي الأخرى سنة إلهية ، لا تبديل لها ولا تحويل ، في «عالم الأفكار» - «كعالم الخلق» سواء بسواء - ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم (١١٩) ﴾[1] ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨) ﴾[2]

فالتعددية بين الأمم في الشرائع والمناهج سنة إلهية ، تثمر الابتلاء الحافز على الاستباق على طريق الخيرات . . بل إن هذه التعددية ، وهذا الاختلاف قد بلغ ، برأي العلماء من مفسري هذه الآيات القرآنية ، إلى درجة اعتباره «حكمة الخلق» . . فقالوا : «وللاختلاف خلقهم»[3] الله ، سبحانه وتعالى ! . .

وإذا كانت التعددية هي منطلق التدافع الفكري والاجتماعي والحضاري ، فإن هذا التدافع - الذي لا وجود له بدونها - هو سبب الصلاح والإصلاح لما يحدث في الاجتماع الإنساني من

---

(١) هود : ١١٨ ، ١١٩ . (٢) المائدة : ٤٨ .
(٣) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ٩ ص ١١٥ طبعة دار الكتب المصرية .

فساد وإفساد ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين (٢٥١) ﴾[1] ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .. ﴾[2]

وحتى فى إطار الأمة الواحدة - ووحدتها فريضة إلهية - ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (٩٢) ﴾[3] .. فإن هذه الوحدة إنما تكون فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، أى ما تتفق فيه الفطر السوية ولا يتأتى فيه الاختلاف - من الوحدة فى العقيدة والشريعة والأمة والدار - وفى ثوابت الوضع الإلهى القطعى الثبوت والدلالة - أما فيما عدا هذه الجوامع للوحدة، فإن التعددية هى السنة التى تحكم تنوع الأمة إلى اجتهادات فى الفروع والمذاهب ومدارس الفكر وتيارات الاجتماع .. ففى الفكر: تنوع فى إطار وحدة الأصول .. وفى الاجتماع: طبقات وشرائح اجتماعية فى إطار الأمة والجماعة .. وكون الإسلام «دين الجماعة»، لا يلغى تميز «الفرد» ولا تمايز «الطبقات»، وإنما تتميز التعددية - فى التصور الإسلامى - بالجامع الذى يجمع أفرادها، والأصول التى توحد جماعاتها وتياراتها ومذاهبها وطبقاتها .. فلا هى «الوحدة» التى لا تعدد فيها .. ولا هى «التعددية» التى لا جامع لأجزائها .. وإذا كانت التعددية الفكرية إنما هى تنوع فى الاجتهاد،

---

(١) البقرة: ٢٥١ .   (٢) الحج: ٤٠ .   (٣) الأنبياء: ٩٢ .

بإطار وحدة التصديق بالبلاغ القرآني والبيان النبوي لهذا البلاغ، فإن معايير الاختلاف في هذا الاجتهاد هي «الصواب» و «الخطأ» و «النفع» و «الضرر»، وليس «الإيمان» و «الكفر».. لأن «الإيمان» و «الكفر» هما معايير الاختلاف فيما هو معلوم من الدين بالضرورة - وهو ما لا يجوز فيه الاختلاف.. لأنه الجامع لوحدة الأمة، التي هي فريضة إلهية، وبدونها لا يكون معنى للتعددية والاختلاف!..

وكذلك الحال في «الحياة الاجتماعية» للأمة: تنوع في الأفراد والطبقات بإطار الوحدة القائمة على ارتفاق الأفراد والطبقات - كتنوع أعضاء الجسد في الحجم والدور والاحتياجات والقدرات بإطار وحدة الجسد، التي تجعل سائر الأعضاء تتداعى بالسهر والحمى لأي عضو إذا هو اشتكى؟!..

ولعل في «الصورة» التي رسمها الإمام علي بن أبي طالب، لهذه التعددية الاجتماعية - في العهد الذي كتبه لعامله على مصر - الأشتر النخعي (٣٧هـ ٦٥٧م) - . لعل فيها التجسيد لعلاقة التنوع بالوحدة، والتعددية بالجامع، والارتفاق الذي يمثل العلاقة بينهما.. لقد قال الإمام علي وهو يوصي عامله: «واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها: جنود الله.. ومنها: كُتَّاب العامة والخاصة.. ومنها: قضاة العدل.. ومنها: عُمَّال الإنصاف والرفق.. ومنها: أهل الجزية والخراج.. ومنها: التجار وأهل الصناعات.. ومنها: الطبقة السفلى، من ذوي الحاجة والمسكنة.. فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن.. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج لهم من الخراج.. ثم

لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب.. ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوى الصناعات..»[1]

وهكذا، تبلغ التعددية - التى هى تنوع فى إطار الوحدة - فى الثقافة الإسلامية، مبلغ السنة الإلهية التى لا تبديل لها ولا تحويل، فى سائر ميادين وعوالم المخلوقات، المادية.. والحيوانية.. والإنسانية.. وفى عوالم الأفكار.. كما بلغت الوحدانية فى تصور الذات الإلهية قمة التنزيه والتجريد..

ولا شك أن الوعى بهذه الحقيقة، وبأبعادها وتجلياتها فى الثقافة الإسلامية، سيثمر العديد والجليل من الثمرات.

٤- ودوائر الانتماء:

وعلى عكس الثقافات، التى أقامت التناقضات بين دوائر الانتماء: «الوطنية» و«القومية» و«الحضارية»، لأنها اعتمدت «الأرض» وحدها مميزا ومحددا للوطنية والوطن، والعرق والجنس مميزا ومحددا للقوم والقومية، على عكس هذه الثقافات، يأتى النموذج الثقافى الإسلامى - انطلاقا من الفطرة - ليسلك هذه الدوائر كدرجات مترابطة ومتكاملة فى سُلَّم الانتماء الأكبر، الذى يضم دوائر فرعية ليس بينها وبين جامع الانتماء الأكبر تناقض أو تضاد..

فالفطرة الإنسانية السوية، التى فطر الله الناس عليها، قاضية بوجود ولاءات وانتماءات متعددة للإنسان، لا تناقض بينها إذا خلت مضامينها ومفاهيمها مما يؤدى إلى تناقض أو تضاد.. فللإنسان ولاء وانتماء إلى أهله وعشيرته لا يتناقض مع ولائه وانتمائه إلى الوطن

---

(١) (نهج البلاغة) ص ٣٣٧. طبعة دار الشعب. القاهرة.

والإقليم الذى ولد وتربى ونشأ فيه، كما أنه لا تناقض بين الانتماء للأهل والوطن وبين الانتماء والولاء للقوم الذين تحدد اللغة دائرتهم.. وكذلك الحال مع الانتماء إلى الدائرة الحضارية التى قد تجمع العديد من الأوطان والعديد من اللغات والقوميات.. فإذا خلت مفاهيم مصطلحات «الوطن» و «القومية» من عصبيات العرق والجنس، وإذا اتخذت مكان الانتماءات الفرعية فى إطار الانتماء الجامع - الانتماء الحضارى - الذى يحدد الاسلام دائرته، فى حال أمتنا العربية والإسلامية - فإن التناقض والتضاد سينتفيان، فى النموذج الثقافى الإسلامى، بين دوائر الانتماء والولاء..

إن الاسلام - وهو الصبغة التى صبغت ثقافة الأمة - يجعل الانتماء إليه والولاء له الجامع الأكبر والأشمل والأول للإنسان المسلم ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾[1] ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾[2]

فالنبى ، ﷺ - أى الرسالة والإسلام - أولى بالمؤمنين من أى

---

(١) التوبة : ٢٤ .   (٢) الأحزاب : ٦ .

ولاء فرعى آخر . . وفى ذات الآية بيان لولاء فرعى بين أولى الأرحام ، طالما لم يخل الولاء لأولى الأرحام بين الإنسان وبين الانتماء والولاء للجامع الأول والأكبر وهو الإسلام ودائرته الحضارية . .

ولذلك ، تجاورت وتفاعلت وتساندت فى التاريخ الحضارى الإسلامى :

وحدة دار الإسلام ، ومعها - وفى إطارها - تمايزت الأوطان والأقاليم . . دونما تناقض أو تضاد . .

ووحدة الحضارة - التى حددت العقيدة والشريعة والأمة دائرتها- وفى إطارها تنوعت القوميات ، التى رسمت اللغات حدودها . .

ووحدة الأمة الإسلامية ، ومعها - وفى إطارها - تمايزت الشعوب والقبائل . .

كل ذلك ، دونما تعارض أو تناقض أو تضاد بين الانتماء الإسلامى الأكبر والأول وبين ما ضم واحتضن من دوائر فرعية للولاء والانتماء . .

فالرسول ، ﷺ - وهو الذى جسد بالرسالة معالم الانتماء للإسلام والولاء له - حتى كانت طاعته طاعة لله ، ومحبته محبة لله - هو الذى عبر عن حبه وولائه لمكة ، وطن النشأة . . ووعاء الذكريات - حتى وهى على الشرك الذى بلغ فى عدائه له حد إخراجه منها - فقال ، ﷺ ، مناجيا إياها فى لحظات الهجرة منها : «والله إنى أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ، وأحب البلاد إلى نفسى . ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت» . . ولقد كان يدعو ربه ، فى المدينة ، أن يحبب إليه المدينة حبه لوطن المولد والنشأة ووعاء الذكريات ! . .

وهكذا تجاورت وتزاملت وتساندت وتفاعلت ، فى النموذج

الثقافى الإسلامى ، دوائر الانتماء للأهل ، والوطن ، والقوم ، وجامعة الإسلام . . فتجاورت الوطنية مع الجامعة الإسلامية ، عندما برئ الانتماء الإسلامى من «عصبية الجاهلية» ومن «جنسيات» القوميات العنصرية التى سادت فى حضارات أخرى . . ووجدنا الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) يفتى «بأن وطن المسلم فى البلاد الإسلامية هو المحل الذى ينوى الإقامة فيه ، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه ، ويقر فيه مع أهله - إن كان له أهل - . ولا ينظر إلى مولده ، ولا إلى البلد الذى نشأ فيه ، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول ، ولا إلى ما يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات ، وإنما بلده ووطنه الذى يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذى انتقل إليه واستقر فيه ، رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته ، دون سواه من سائر الحكام ، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم مالهم وعليه ما عليهم ، لا يميزه عنهم شئ ، لا خاص ولا عام .

أما الجنسية - المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون Capitulations» فليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها أحكام تجرى عليهم ، لا فى خاصتهم ولا عامتهم ، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية ، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه ، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها عن سواهم .

جاء الاسلام فألغى تلك العصبية ، ومحا آثارها ، وسوّى بين

الناس فى الحقوق . فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر فى الحقوق ولا فى الأحكام . فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة . فقد قال ﷺ : «إن الله أذهب عنكم عُبيّة الجاهلية - (أى عظمتها) - وفخرها بالآباء ، وإنما هو مؤمن تقى وفاجر شقى ؛ الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب»[1] . وروى كذلك عنه : «ليس منا من دعا إلى عصبية»[2] .

وبالجملة ، فالاختلاف فى الأصناف البشرية ، كالعربى والهندى والرومى والشامى والمصرى والتونسى والمراكشى ، مما لا دخل له فى اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه . ومن كان مصريا وسكن فى بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب ؛ ولا ينظر إلى أصله المصرى بوجه من الوجوه .

وأما حقوق الامتيازات ، المعبر عنها «بالكابيتولاسيون» ، فلا يوجد شىء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة ، هذا ما تقضى به الشريعة الإسلامية ، على اختلاف مذاهبها ، لا جنسية فى الإسلام ، ولا امتياز فى الحقوق بين مسلم ومسلم ، والبلد الذى يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده ؛ ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره[3]»

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) وفى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والإمام أحمد : « ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية » .

(٣) تاريخ هذه الفتوى ٩ رمضان سنة ١٣٢٢هـ نوفمبر سنة ١٩٠٤م (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ٢ ص ٥٠٥ - ٥١٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

وبهذا جمع الإسلام، في نموذجه الثقافي، بين وحدة دار الإسلام وبين تمايز الأوطان فيها، وتجاورت فيه الوطنية اللاعنصرية والأممية الحضارية - لا الأممية الطبقية التي ناصبت الوطنية والقومية العداء؟!..

وبهذا يقدم الاسلام نموذجا ثقافيا متميزا في دوائر الانتماء، انطلاقا من الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها.

٥- ومصادر والمعرفة:

وإذا كان النموذج الثقافي الإسلامي: بالنسبة لأمتنا، هو «الذات» .. على حين مثل ويمثل النوذج الثقافي الغربي، بالنسبة لنا، «الآخر» - منذ بدء الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لوطن العروبة وعالم الإسلام - قبل قرنين من الزمان - .. فإن الوعي بتمايز «الذات» عن «الآخر»، في «مصادر المعرفة»: هو أمر ضروري في اكتشاف منطلقات هذا التمايز بين نموذجي الثقافة الاسلامية والغربية ..

لقد أسس الغرب نهضته الثقافية الغربية الحديثة والمعاصرة على «المذهب الوضعي»، وذلك إبان ثورة فلسفة التنوير الأوربية على الكنيسة والمقدس واللاهوت .. و «الوضعية» Positvisme هي المذهب الذي يرى أن الفكر الإنساني لا يدرك إدراكا حقيقيا سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، وأن المعرفة الحقة هي معرفة الواقع، وأن الحق هو ثمرة التجربة، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتها وتنظيمها، وأن العلوم

التجريبية هي المثل الأعلى في اليقين.. أما غير الظواهر المحسوسة فوهم.. وأن تاريخ العقل قد مر بحالات ثلاث: حالة لاهوتية، وحالة ميتافيزيقية، وحالة واقعية، هي الوضعية التي تأسس عليها النموذج الثقافي والمعرفي الغربي الحديث(١)

فالفلسفة الوضعية - ومن ثم نموذجها الثقافي - قد أقامت المعرفة على مصدر واحد هو الواقع المادى ، وحقائق عالم الشهادة ؛ لأنها بنت التنوير الغربي ، الذي أحل العقل والعلم والفلسفة محل الله والدين واللاهوت ، ورأى الوضعيون أن العالم مكتفى بذاته ؛ ومن ثم فإن واقعه هو المصدر الوحيد للمعرفة الحقة . .

لكن التصور الإسلامي ، ونموذجه الثقافي ، لم يقف بمصادر المعرفة عند العالم فقط ، والواقع وحده . . بل لقد تحدث القرآن الكريم عن أن هذا المصدر الواقعي لا يفي وحده بتفسير حقائق المعرفة ، عبر تاريخ المعارف الإنسانية . . فقال : ﴿ . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٦) يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧) أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون (٨) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا

---

(١) (المعجم الفلسفي) - وضع مجمع اللغة العربية - القاهرة - طبعة سنة ١٩٧٩م و(المعجم الفلسفي) - وضع : د . مراد وهبة ، يوسف كرم ، يوسف شلالة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م .

كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٩) ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون (١٠) الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون (١١)»[1]..

فبمعارف ظاهر الحياة الدنيا وعالم الشهادة - الوضعية - وحدها، لا سبيل إلى معارف وحقائق خلق الله السموات والأرض وما بينهما.. ومعارف لقاء الله، في الدار الآخرة، بعد هذه الحياة الدنيا.. ولا سبيل إلى تفسير عاقبة الأمم التي أخذها الله بذنوب تكذيبهم الرسل وظلمهم لأنفسهم، مع ما كانوا عليه من قوة وعمران، لا يفسر هلاكهما بمعارف الواقع المادي وحدها.. لا سبيل إلى تفسير هذه العواقب بمعارف عالم الشهادة وحدها.. فنحن هنا أمام سنن غير معتادة، لا سبيل إلى معرفتها بحقائق الواقع المادى وحدها..

ولذلك، فإن النموذج الثقافى الإسلامى، فى مصادر المعرفة، وإن لم يهمل عالم الشهادة، والواقع المادى، كمصدر للمعرفة، فإنه لم يكتف بهذا المصدر، وإنما أضاف إليه عالم الغيب، ونبأ السماء، وكتاب الوحي، والأدلة والمعارف والحقائق السمعية، مصدرا للمعارف التي لا تصدر عن الواقع المادى، ولا يستقل العقل بإدراكها، ولا تخضع لتجارب الحواس.. فأقام هذا النموذج الإسلامي ثقافته على ساقين اثنتين، واعتمد للمعارف مصدرين: كتاب الوحى المسطور، وكتاب

(١) الروم: ٦ - ١١

الكون المنظور، الأمر الذى ضمن التوازن للنموذج الثقافى الاسلامى.. وذلك بدلا من إقامته على ساق واحدة، كما هو الحال فى النموذج الثقافى الذى أثمرته الوضعية الغربية..

فإذا كانت ثقافة التنوير الغربى قد أقامت معرفتها على حقائق الواقع المادى وحدها، لأن تنويرها واستنارتها قد رأت العالم مكتفيا بذاته عن المدبر المفارق لهذا العالم .. فإن للاستنارة الإسلامية آفاقا أرحب ونطاقا أشمل وثمرات مغايرة .. فليس العالم المادى هو وحده مصدر فلسفة التنوير وثقافة الأنوار، لأن الله، سبحانه وتعالى، «نور» ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[1] .. والقرآن الكريم «نور» ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (174) ﴾[2] .. والرسول، ﷺ «نور» ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (15) ﴾[3] .. فنبأ السماء - النبأ العظيم - ليس «الوهم»، الذى يمثل طور طفولة العقل البشرى السابقة على الميتافيزيقا؛ وعلى الوضعية - كما تصورت فلسفة التنوير الغربى نصرانيتها - وإنما هذا النبأ العظيم (برهان من ربكم) و (نور)، والمستنير به له تنويره الإسلامى، القائم على آيات كتابى الوحى والكون جميعا، وليس على معارف الواقع المادى وحدها دون سواها ..

---

(1) النور: 35. (2) النساء: 174. (3) المائدة: 15.

٦ - وسُبل المعرفة :

وكما مثل النوذج الثقافى الإسلامى ، فى مصادر المعرفة - عند مقارنته بالآخر الغربى - إضافة أقامته على ساقين ، وضمنت له التوازن . . فإن هذا النموذج الإسلامى ، فى سبل المعرفة ، قد صنع ذلك أيضا . .

فعلى حين اعتمدت الوضعية الغربية «التجربة» سبيلا أوحد للمعرفة الحقة ، جاعلة «العقل» منسقا بين معطيات «التجربة» ومنظما لها . . فإن النموذج الإسلامي في الثقافة قد اعتمد لسبل المعرفة أربع «هدايات»، هي «العقل» و «النقل» و «التجربة» و «الوجدان»، لا باعتبارها سبلا متجاورة ومستقلا كل منها عن الآخر، وإنما باعتبارها سبلا متعاونة ومتعاضدة ومتفاعلة في تحصيل معارف وحقائق وسنن وقوانين كتابي الوحي والوجود، واكتشاف آيات الله في الأنفس والآفاق..

وهكذا مثل النموذج الثقافي الإسلامي - ويمثل - إذا ما قورن بالآخر الغربي - إضافة، لا انتقاصا، جعلت وتجعل هذا النموذج الثقافي الإسلامي أوفى بتحصيل المعارف جميعها، ومن مختلف مصادرها، وليس فقط ما يدرك منها بتجارب الحواس..

وعلى حين ألّه التنوير الغربى «العقل» ، وجعل براهينه النقيض «للنقل» والوحى والدين ، فدعى فلاسفته إلى «تحرير العقل من سلطان الدين ، وإعمال العقل دون معونة من الآخرين ، وجعل السلطان المطلق للعقل ، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلا للعقل وحده[1]» ، فجاءت عقلانية التنوير الغربى - ونموذجه الثقافى - وضعية ومادية .. فإن النموذج الثقافى الإسلامى ، الذى سلك العقل ، كأحد الهدايات ، مع «النقل» و «التجربة» و«الوجدان» ، لم يعرف هذه المقابلة المتناقضة بين العقل و «الإيمان الدينى» ، **بل لقد قدم هذا النموذج الثقافى «عقلانية مؤمنة» ، حث عليها الدين ، وجعلها مناط التكليف ، والحكم الذى به يتبين الإنسان ما فى القرآن من محكم ومتشابه ، بل وسبيل معرفة الذات الإلهية ، التى تمثل جوهر الإيمان الدينى !..**

لقد عقد النموذج الثقافى الإسلامى أواصر الارتفاق بين «العقل» و «الشرع» ، والتزمت ذلك أعرض تيارات الفكر الإسلامى انتشارا وتأثيرا فى النموذج الثقافى الإسلامى ، حتى قال الإمام الغزالى : «**إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد ، واتباع الظواهر ، ما أُتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر . وأن من**

(١) د . مراد وهبة (مدخل إلى التنوير) ص ٦٧ ، ٦٩ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م

تغلغل فى تصرف العقل، حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أُتُوا به إلا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط.. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والأذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأَخْلِق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء. فالمُعرِض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن، مثاله: المُتَعرِّض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور(1)»!

وهكذا تميز النموذج الثقافى الإسلامى «بالعقلانية - المؤمنة»، تلك التى آخت بين «العقل» وبين «الشرع»، جاعلة منهما «نورا على نور»، وجاعلة منهما - لا من واحد منهما دون الآخر - أداتى التحسين والتقبيح.. وبعبارة رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م): «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعْتَدّ به إلا إذا قرره الشارع.. وليس لنا أن نعتمد على ما يُحسِّنُه العقل أو يُقَبِّحُه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه..»

وإذا علمنا أن الطهطاوى قد قال ذلك فى معرض نقده للنموذج الثقافى الوضعى الغربى.. نموذج الذين «يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب».. وفى سياق رفضه - بل وإدانته لهذا النموذج الوضعى - حتى لقد قال: إنه «لا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا

---

(1) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ٢، ٣ طبعة القاهرة - المطبعة المحمودية التجارية بدون تاريخ.

إليها تحسينا وتقبيحا ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود .
فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول
المجردة .[1]»!

إذا علمنا ذلك أدركنا تميز النموذج الثقافى الإسلامى ، عن النموذج الغربى ؛ بهذه «العقلانية المؤمنة» ، التى جمعت بين «العقل» و «الشرع» . . ولم تقف عند العقل وحده - كحال النموذج الوضعى والمادى . . أو عند «الوجدان» وحده - كحال النموذج «الباطنى» ، الذى ساد فى فلسفة «الغنوص» و«الإشراق[2]» . .

(١) (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ٢ ص ٣٢ ، ٤٧٧ ، ٣٨٧ . دراسة وتحقيق . د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

(٢) الغنوصية : فلسفة الخلاص بالمعرفة . . والإشراق : فلسفة الهبة لا الكسب . . وكلاهما لا يقيمان للعقل وزنا .

٨ - ومكانة المرأة من الرجل :

في النموذج الثقافي الإسلامي، كما صاغه البلاغ القرآني، وجسده البيان النبوي تجربة حية في مجتمع المدينة، على عهد رسول الله، ﷺ، نجد المساواة بين المرأة والرجل تامة وكاملة في الخلق .. والتكريم .. والتكليف .. والحساب والجزاء .. ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (١)﴾[1]

﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾[2]

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم (٧١)﴾[3]

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٩٧)﴾[4]

---

(١) النساء : ١ .
(٢) الأعراف : ١٨٩ .
(٣) التوبة : ٧١ .
(٤) النحل : ٩٧ .

﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم (٢٢٨) ﴾[1]

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع عليهم وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على بيت سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته[2]»

لكن هذه المساواة، في النموذج الإسلامي، ليست مساواة «الند المماثل»، كما هو حالها في النموذج الثقافي الغربي، وإنما هي مساواة «الشقين المتكاملين».. مساواة في الخلق.. والتكريم.. والتكليف.. والحساب والجزاء.. مع مراعاة الفطرة التي ميزت بين الأنوثة والذكورة، ليكونا شقين متكاملين، يحقق تكاملهما سعادة النوع الإنساني.. ولا يكونا «ندين متماثلين»، فتكون المساواة تناحرا يشقى به الفريقان، وتمسخ به الفطرة التي فطرهما عليها الخالق، سبحانه وتعالى..

ذلك هو النموذج الثقافي الإسلامي لمكانة المرأة من الرجل، الذي تميز عن نموذجها في الثقافة الغربية.. والذي لا علاقة له بالتقاليد التي ظلمت المرأة، والتي يحسبها أصحابها، زورا وبهتانا، على الاسلام !؟..

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

وإذا كانت «التعددية» - كما سبق الحديث - هي سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل .. فإن وجود «الآخر» : المتميز عن «الذات» ، والقبول له ، والتعايش معه هو القانون ..

ولهذه الحكمة ، رفض النموذج الثقافي الإسلامي - ويرفض - منهاج «الصراع» سبيلا لحل التناقضات بين الذات والآخر ، لأن «الصراع» يعني أن يصرع طرف الطرف الآخر، وينفرد بالميدان، فتزول التعددية بين الفرقاء المتمايزين.. هذا هو «الصراع» .. وتلك هي الدلالة القرآنية لمصطلحه .. ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧) فهل ترى لهم من باقية (٨) ﴾[1]

وبدلا من «الصراع»، الذي لا مكان معه للتعددية، والتعايش بين «الذات» و «الآخر»، يزكي النموذج الثقافي الإسلامي، لحل التناقضات بين الفرقاء المختلفين، منهاج «التدافع»، الذي هو حراك يعدل المواقف والمواقع، مع المحافظة على بقاء التمايز والتعددية دائما وأبدا ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) ﴾[2].. بل إن الدفع والتدافع هو منهاج الحفاظ على التعددية

---

(١) الحاقة : ٧، ٨ .

(٢) فصلت : ٣٤ .

حتى فى الشرائع الدينية ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (٤٠) ﴾ [1]

وكما جعل النموذج الثقافى الإسلامى من وجود «الآخر» السبيل لتميز «الذات» ، ودعا إلى تعددية التعايش بين الفرقاء المتمايزين . . رأيناه يرسم معايير «الولاء» و «البراء» بين «الذات المسلمة» وبين «الآخر غير المسلم» . . فبيننا وبين «الآخرين» علاقات «البر» و «القسط» دائما وأبدا ، اللهم إلا إذا قاتلونا فى ديننا أو أخرجونا من ديارنا ، أو ظاهروا على هذا الإخراج لنا من الديار الإسلامية . . وعند ذلك فقط - لا «بر» ولا «قسط» مع هؤلاء «الآخرين» . . وإنما هو الجهاد لهم ، على امتداد وتنوع صنوف الجهاد ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (٩) ﴾ [2] . . وإذا كان الاسلام عقيدة صبغت حضارة وميزت ثقافة وتاريخا ووحدت أمة . . فإن جوامعه

---

(١) الحج : ٤٠ .

(٢) الممتحنة : ٨ ، ٩ .

الحضارية والثقافية والتاريخية قد أدخلت غير المسلمين ، من الذين أظلتهم دولته ، فى «الذات المسلمة حضاريا» : فقامت وحدة فى الأمة ؛ مع تعددية فى الملل والشرائع داخل الأمة الواحدة ! . .

١٠ - والتجديد والاجتهاد :

فى علاقة «الحاضر» بـ «الماضى» ، و «الجديد» بـ «القديم» ، هناك نماذج ثقافية ثلاثة ، فيها طرفا غلو ، وبينهما الوسط العدل المتوازن - الذى يزكيه الإسلام - :

(أ) هناك غلو الإفراط الذى يمثله الجمود والتقليد ، ذلك الذى لا يميز ، فى الاعتصام بالماضى ، بين الثوابت وبين المتغيرات ، بين الإلهى وبين البشرى ، بين المناهج وبين التجارب والتطبيقات . . فيضفى القداسة والثبات على الماضى جميعه ، حتى ليكاد أهله أن يهاجروا إليه مديرين ظهورهم للحاضر والمستقبل والجديد . .

(ب) وهناك غلو تفريط «الحداثة» - بالمعنى الغربى - وهى التى أثمرتها فلسفة التنوير الغربى اللادينية ، والتى أقامت قطيعة معرفية مع الدين ، عندما عزلت شرائعة عن ضبط شئون العمران ، وحررت السلوك البشرى من أحكامه ، وحالت بين السماء وبين تدبير الأرض والعالم . . وكما يقول أحد دعاتها : **«فإن التنوير قد مثل القطيعة الإبستمولوجية الكبرى التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكوينى، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير[1]».**

---

(١) إميل بولا (الحرية والعلمنة : حرب شطرى فرنسا ومبدأ الحداثة) منشورات سيرف ، باريس سنة ١٩٨٧م . والنقل عن هاشم صالح - مجلة (الوحدة) - التى تصدر بالمغرب - عدد فبراير - مارس سنة ١٩٩٣م .

(جـ) وبين غلوى الإفراط والتفريط - فى علاقة الحاضر بالماضى، والجديد بالقديم - يأتى النموذج الثقافى الإسلامى، بوسطيته المتوازنة، فيعتمد «التجديد»، الذى هو تطور من داخل النسق، يميز بين الثوابت والمتغيرات فى الموروث، فيفتح الباب للتطور مع الاحتفاظ بالمعالم والسمات التى أعطت وتعطى النسق الحضارى خصوصيته المميزة له عن الأنساق الحضارية الأخرى.. فيواكب كل المستجدات، دون أن تتبدل «هويته»، أو يفقد «بصمته»، التى تمثل «مبادئه» و«مناهجه» و«حِكَمه» و«مقاصده»..

ويعتمد «الاجتهاد»، الذى يُستنبط «أحكام الفروع» من «المبادئ والأصول»، فيمد الأغصان الجديدة لتظلل المساحات المستجدة، فى ارتباط بالأصول التى تسرى روحها وتشيع ضوابطها وتحقق مقاصدها فى كل اجتهاد جديد.. فيتم به «النمو» الدائم، مع الاحتفاظ «بالشخصية» التى يمثلها هذا النسق الفكرى والحضارى..

وفى النموذج الثقافى الإسلامى يبلغ «التجديد» مرتبة «السنة.. والقانون»، لأن تمثيل هذا النموذج للشريعة الخاتمة يستدعى «التجديد» فيه، حتى لا ينسخها التطور ويطوى صفحتها.. ولأن «عالمية» هذه الشريعة الخاتمة تستدعى، هى الأخرى، «التجديد» الذى يستجيب لجديد الأمم والبقاع والعادات والأعراف.. وعن هذه «السنة.. والقانون»، يقول رسول الله، ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها[1]».. فبه تتم «أسلمة الجديد».. وبه

(١) رواه أبو داود.

تتجدد المنابع ، عندما تُزال عنها طوارئ البدع التى تحد من فاعليتها فى التوليد والإبداع . .

وفى هذا النموذج الثقافى الإسلامى ، أيضا ، يبلغ «الاجتهاد» مرتبة الفريضة ، ولا يقف عند مجرد كونه حقا من الحقوق ! . .

وبجناحى «التجديد» و «الاجتهاد» يحلق العقل العربى والمسلم ، عبر الزمان والمكان ، ملتزما المعالم والمنارات التى مثلت وتمثل خصائص النموذج الثقافى الإسلامى - والتى أشرنا إلى نماذج هامة منها - فيعيش «الحاضر» ، ويستشرف «المستقبل» ، دون أن يقع فى إفراط الجمود والتقليد ، أو تفريط القطيعة مع المنابع والثوابت والأصول . .

* * *

وإذا كانت «الحاجة» هى أم «الاختراع»، و«الضرورة» هى الحافز على «الإبداع»، فإن الإيمان بوجود خصوصية للنموذج الثقافى الاسلامى، تميزه عن «الآخر» هى الحافز على التوليد والإبداع فى النموذج الثقافى.. وبدون الإيمان بهذه الخصوصية، فإن الكسل العقلى سيغرقنا فى مستنقع التقليد.. تقليد الماضى، والجمود على تجارب أهله.. أو تقليد «الآخر»، والجمود على نماذجه، والقطيعة المعرفية مع نموذجنا الثقافى العربى الإسلامى وماله من خصوصيات. والله أعلم.

الفهرس

إلى القارئ العزيز ..

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، **تصدر هذه السلسلة** ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى .
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا .
- ا . فهمى هويدى
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر



